يوسف صديق (٢)

.. «وبعد الثورة بأيام أقام القاضى أحمد فؤاد وكان مسئول قسم الجيش فى حدتو حفل عشاء محدود فى بيته ودعا إليه عددا من قيادة الثورة.. وكمال عبدالحليم. دخل كمال عبدالحليم واحتضننى وقبلنى وقال إزيك يا أبوحجاج، والتقطت العينان اليقظتان لعبدالناصر هذه المصافحة، ويومها فقط أدرك جمال أننى شيوعى»
يوسف صديق «فى حواره معى»

٢٣ يوليو.. كان يوسف صديق قد أصبح قائمقاما وكان أعلى الضباط الأحرار رتبة باستثناء محمد نجيب الذى لم يكن له علاقة مباشرة معهم، كان قائدا للكتيبة الأولى مدافع ماكينة، وصدر الأمر بنقلها من العريش إلى القاهرة، فكانت الفرصة الذهبية للضباط الأحرار. لكن يوسف ما لبث أن سقط مريضا فور وصوله مع طلائع الكتيبة، كان مريضا بصدره وآلام لا تطاق والدم ينزف من فمه، زاره عبدالناصر وعبدالحكيم عامر فى بيته يوم ٢٠ يوليو فزعا من حالته وقال جمال: «يا خسارة لن تستطيع أن تشارك معنا» لكنه أصر على المشاركة فكل أحلامه وأحلام أبيه وخاله وأحلام تنظيمه توشك أن تتحقق، وفى ليلة ٢٣ يوليو حقنه الطبيب ليوقف النزيف وتحرك بقواته ليحقق الحلم، وفيما هم يتحركون قابلهم قائد الفرقة اللواء عبدالرحمن مكى، وهنا أصبح الخطر يهدد كل شىء، فالقائد الأعلى رتبة أمره مطاع، وفجأة أخرج يوسف صديق مسدسه وأشهره فى وجه اللواء وقال ببساطة واحترام «سيادة اللواء أنت مقبوض عليك».

وقبض عليه، فى حوارى معه سألته: كيف فعلتها؟ فأجاب لو ترددت دقيقة واحدة كان اللواء سيصدر أمرا وسيطيعه الضباط الصغار أو سيترددون وتفشل الثورة، وفى الطريق ألقت قواته القبض على جمال عبدالناصر وعبدالحكيم عامر بملابسهما المدنية وأخلى هو سبيلهما ليعودا إلى البيت لارتداء الملابس العسكرية، وفى ذات الحوار سألته: ألم تفكر فى أن تستمر فى القبض

عليهما وتتولى أنت قيادة الثورة؟ فنظر إلى غاضبا وقال «يا رفيق نحن شيوعيون ولسنا أوغادا» ويمضى يوسف صديق فى حواره «وعلمت من جمال وعامر أن قادة أركان الجيش مجتمعون فى مبنى القيادة العامة المجاور وأن أمر الثورة قد كشف وقلت لهما: العجلة دارت خلاص ولا تراجع وإذا كانوا فى مبنى القيادة فأنا ذاهب إليهم» وذهب وأوقعهم جميعا فى المصيدة وقبض عليهم جميعا، وعلى مكتب القائد العام للقوات المسلحة جلس يوسف صديق ليدير عملية الاستيلاء على السلطة، وبعدها حضر جمال عبدالناصر وببساطة وقف يوسف صديق وأجلسه مكانه.

وأتأمل المفارقة، يوسف أنجز جزءا مهما من المهمة، وهو أعلى رتبة من جمال ولكنه وقف وأسلمه زمام القيادة وأسأله كيف فقال: «تعلمت فى حدتو أن أحترم المسئول حتى لو كان أصغر سنا أو مكانة وتعلمت أن أحترم العهد وأن أتصرف بأخلاق وأنا لم أكن أسعى إلى سلطة أو منصب فقط كنت أسعى لتحرير شعبى ووطنى».

لكن التصادم يأتى سريعا فقد طالب يوسف بحكومة ائتلافية مدنية وانتخابات حرة وديمقراطية كاملة، ودستور جديد يكفل للمواطنين حقوقهم.. وبعدها يعود الجيش إلى الثكنات، وتهكم عليه واحد من أعضاء مجلس الثورة «وكان جمال قد أبلغهم أن يوسف صديق شيوعى» فقال له: أنت عاملى فيها يوسف ستالين، ولم يجد يوسف أمامه سوى دواية الحبر فقذفها فى وجهه.. وبدأ الصدام الحاد.

ونحى يوسف صديق من مجلس قيادة الثورة فى إطار حملة ضارية قادها الحكم ضد الشيوعيين، وفى أواخر ١٩٥٣ بدأت الضربات تتوالى، قضايا يقبض فيها على أعداد كبيرة وغير مسبوقة، واختفى الناجون من أعضاء القيادة، ووجدنا نحن أعضاء رابطة الطلبة الشيوعيين – حدتو – أنفسنا وحدنا وبلا قيادة، لكننا واصلنا عملا نشطا، وذات يوم اتصل بى زميل كان فى خلية بحقوق عين شمس ليقول: إنه على علاقة بشخص قريب يوسف صديق وأنه طلب منه أن يرتب لقاء مع المسئول، وأصابتنى حيرة، فنحن لم نجد أى سبيل للاتصال بمسئولين فالجميع مختفون إذ كنا أعضاء فى تنظيم مستقل تقريبا هو رابطة الطلبة الشيوعيين، والمسئول عن هذه المجموعة من الطلاب هو أنا، وقلت الحقيقة للزميل فنقلها، ليعود ويقول هو يريد مقابلة مسئول المجموعة الطلابية، وقابلت أنا الطالب فى السنة الثانية حقوق، هذا القائد المهيب، وكان مهيباً فى الأداء والسمعة والخبرة وأيضا فى الشكل، تمشى البطل فى الحجرة ذهابا وإيابا، وبدأ الحديث..

«عبدالناصر يستعد لتوقيع اتفاقية الجلاء ويود أن يضمن تأييدا من حدتو التى كانت تسعى بنشاط لتكوين الجبهة الوطنية الديمقراطية، أو حتى تهدئة فى معارضتها للاتفاقية وكبداية للمصالحة عرض على يوسف صديق أن يكون سفيرا فى الهند ليدرس ما يدعو إليه نهرو من سياسة غامضة اسمها «الحياد الإيجابى» وفيما يغادر يوسف لم ينس عبدالناصر أن يلوح بالعصا الغليظة فقال ليوسف وهو يبتسم وكأنه فى حالة هزار «قول لعلية تبطل نشاط وإلا سأعتقلها».

استمعت للرواية وزدت حيرة وخوفا أما الإجابة التى قلتها فكأنها كانت رسالة استفزاز، قلت أنا لا أملك رأيا فى أمور معقدة كهذه ولكن اعتقد أن الحل هو أن تقول لعبدالناصر قادتنا فى السجون أفرج عنهم وتشاور معهم، وبالطبع غضب عبد الناصر. ودارت ماكينة الإرهاب أكثر فأكثر وحددت إقامة يوسف وسجنت زوجته علية، ورد عليهم يوسف بقصيدة يذكرهم فيها بأنهم كانوا فى قبضته يوم الثورة وأنه بأخلاقياته أفرج عنهم، أما هم فقد خانوا كل العهود وحتى زوجته سجنوها. وعندما كان عدوان ١٩٥٦ ترك منزله رغم الإقامة الجبرية ودون إذن من أحد، فالوطن يناديه، وذهب إلى غرفة العمليات بثيابه العسكرية واضعا نفسه تحت إمرة من قيدوا حريته.

وفى ٣١ مارس ١٩٧٥ آن للفارس المهيب والقائد الشجاع أن يرحل، ولكن هل يرحل حقا أمثال يوسف صديق؟